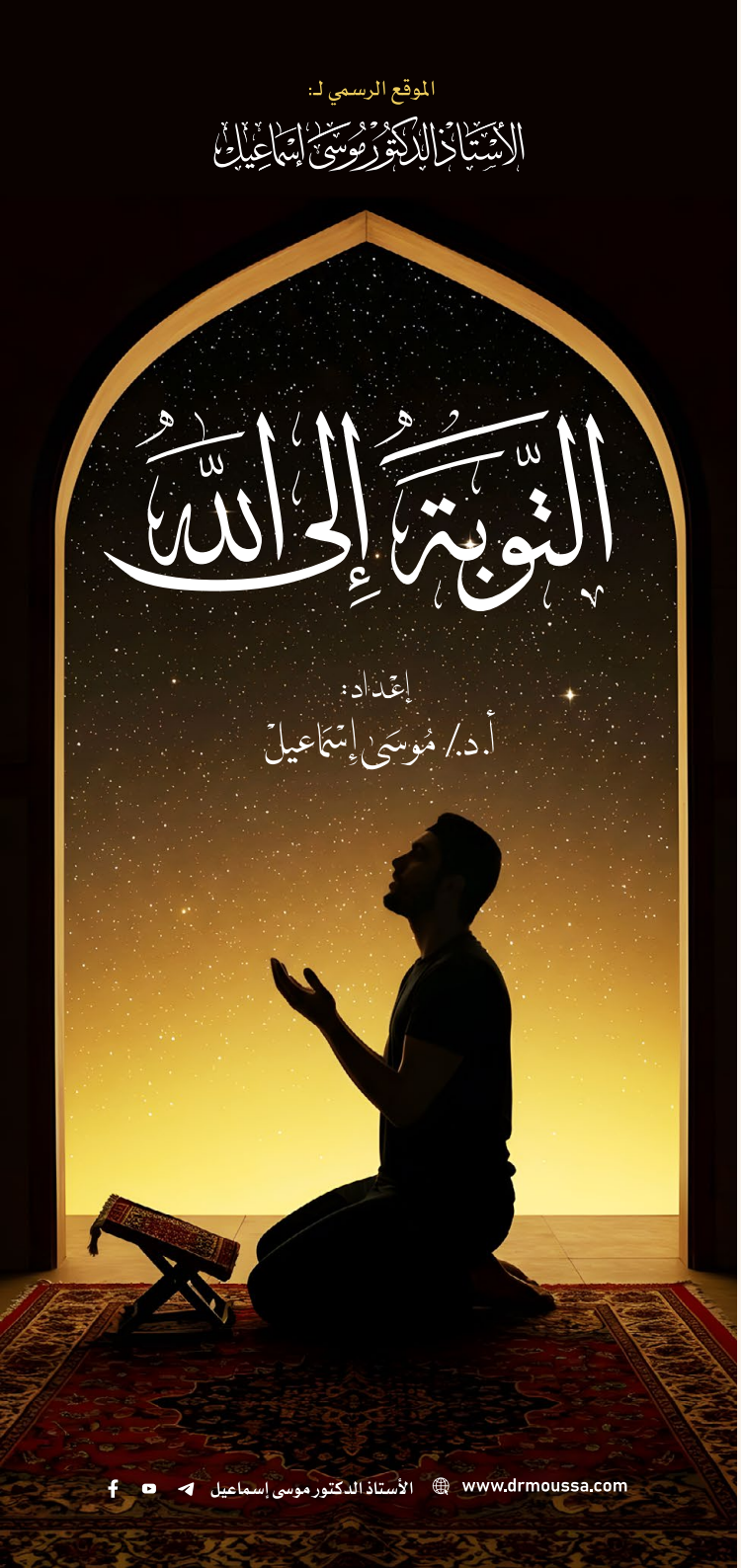

ومن الغفلة إلى الذّكر، كما قال عزّ وجلّ عن مثل هؤلاء: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ [التكاثر: 1 ـ 4].

وقال عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ۝١٣ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝١٤﴾ [الحديد: 13 ـ 14].

قال عكرمة في تفسيرها: «قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ بالشَّهَوَاتِ، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالتَّوْبَةِ، ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ التَّسْوِيفُ، ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ قَالَ: الشَّيْطَانُ».

ويحدّثنا القرآن الكريم عن ندم الغافل وتحسّره يوم لا ينفع النّدم فيقول سبحانه: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُّ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ﴾ [الزمر: 56 ـ 57].

ويتمنى عودة أخرى إلى الدنيا ليؤمن ويحسن العمل ولكن لا جدوى من ذلك، ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٩﴾ [الزمر: 58 ـ 59].

وعن خطورة التّسويف وتأخير التّوبة يقول أبو حامد

الغزالي في إحياء علوم الدين: «ومن ترك المبادرة إلى التّوبة بالتّسويف كان بين خطرين عظيمين:

أحدهما: أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير رينا وطبعا فلا يقبل المحو.

الثّاني: أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو».

والتّائبون على ثلاث طبقات، فأدناهم التّائبون من الكفر، وأوسطهم التّائبون من المعصية، وأعلاهم التّائبون من الغفلة.

وسئل ذو النّون عن التّوبة فقال: «تَوْبَةُ الْعَوَامّ مِنْ الذُّنُوبِ، وَتَوْبَةُ الْخَوَاصِّ مِنْ الْغَفْلَةِ».

وقال عَبْد اللَّهِ بْن عَلِي بْن مُحَمَّد التّميمي: «شَتَّانَ مَا بَيْنَ تَائِبٍ يَتُوبُ مِنَ الزَّلَّاتِ، وَتَائِبٍ يَتُوبُ مَنَ الْغَفَلَاتِ، وَتَائِبٍ يَتُوبُ مَنَ رُؤْيَةِ الْحَسَنَاتِ».

الأستاذ الدكتور موسى إسماعيل

www.drmoussa.com

التوبة إلى الله

الحمد لله، والصّلاة والسّلام على رسول الله، وعلى آله وأصحابه ومن والاه.

أمّا بعد؛ فإنّ التّوبة واجبة على كلّ مسلم ومسلمة في كلّ حال، ليظفرَ بسعادة الدّنيا والآخرة، ومن قُبلت توبة غُفرت ذنوبه حُطَّت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿53﴾﴾ [الزمر: 53].

معنى التوبة.

التّوبة في اللّغة عبارة عن الرّجوع، تقول: تاب يتوب توبةً وتوبًا ومتابًا إذا رجع.

وفي معناها الشّرعي قال الإمام القُشيري في الرّسالة: «التّوبة الرّجوع عمّا كان مذمومًا في الشّرع إلى ما هو محمود فيه».

وقال ابن جرير الطّبري في تفسيره: «معنى التّوبة من العبد إلى ربّه إنابته إلى طاعته وأوبته إلى ما يرضيه، بتركه ما يسخطه من الأمور التي كان عليها مقيمًا ممّا يكرهه ربّه».

فتوبة الكافر هي الرّجوع من الكفر إلى الإسلام، وتوبة المسلم العاصي هي الرّجوع من

المعصية إلى الطّاعة، وتوبة المبتدع هي الرّجوع عنها إلى السُّنّة.

وجوب التوبة.

التّوبة واجبة على كلّ مسلم مهما كانت درجة إيمانه وتقواه، لأنّه لا يخلو أحد من خطئ أو تقصير، ولذا قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿31﴾﴾ [النور: 31].

وقال الله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: 3].

وفي الحديث الحسن عند أحمد والتّرمذي وابن ماجه عن أنس رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «**كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**».

وروى مسلم عن الأَغَرّ بن يسار المُزَنِيّ رضي الله عنه قال: قال رسول اللهِ ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ**».

التعجيل بالتوبة:

على المسلم أن يبادر إلى التّوبة إلى الله تعالى توبة نصوحًا، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: 8].

يقول أبو بكر الواسطي: «التّوبة النّصوح لا تبقي على صاحبها أثرًا من المعصية سرًّا ولا جهرًا، ومن كانت توبته نصوحًا لا يبالي كيف أمسى أو أصبح».

ومن رحمة الله سبحانه تعالى بعباده أنّه يذكّرهم

دومًا بالتّوبة ويأمرهم بتعجيلها قبل فوات الأوان، لأنّ الأعمار محدودة ولا تدري نفس متى تموت، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿54﴾﴾ [الزمر: 54].

ويقول عزّ وجلّ: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿31﴾﴾ [إبراهيم: 31].

وفي الحديث الشريف الذي رواه الترمذي وحسّنه والحاكم وصحّحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**بادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلاَّ فَقرًا مُنسِيًا، أَوْ غِنىً مُطغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا، أَوْ مَوتًا مُجْهِزًا، أَوْ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ**».

وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**»، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ».

خطورة الغفلة عن التوبة:

كم من إنسان ألهته نفسه الأمّارة بالسّوء عن التّوبة بالتّسويف، وفرّط في طاعة الله وضيّع واجباته حتى جاءه الموت بغتة من حيث لا يدري، وفاته الرّجوع من المخالفات والمعاصي إلى الله تعالى،